صدور المشارقة والمغاربة

قطب الدين الشيرازي[١]

هو القاضي قطب الدين محمود بن مسعود الشيرازي كان اماماً مبرزاً في عدة علوم مثل العلم الرياضي والمنطق وفنون الحكمة والطب والأصول وله عدة مصنفات وفضائله مشهورة . كان مولده بمدينة شيراز في صفر سنة أربع وثلاثين وستمائة وتوفي بتبريز سنة عشر وسبعمائة فتكون مدة عمره ستاً وسبعين سنة وسبعة أشهر ملخصاً عن تاريخ ابي الفدا وقال ابن الوردي انهُ توفي وهو في عشر الثمانين وكان غزير العلم واسع الصدر حسن الاخلاق وجيهاً عند التتر وغيرهم ثم قال في رثائهِ

لقد عدم الاسلام حبراً مبرزاً كريم السجايا فيهِ مع بعده قرب
عجبت وقد دارت رحا العلم بعده وهل للرحا دور وقد عدم القطب

وقال الشيخ طاهر الجزائري في كُنَّاشهِ[٢] وقفت على كتاب في تراجم أناس من المشهورين جمع الامام العلامة نجم الدين أبي الخير سعيد بن عبد الله الدهلي البغدادي وفيهِ ترجمة القطب الشيرازي وهي ناقصة في النسخة فاثبتها على ما وجدتها اعتناء بهذا العلامة الأوحد : ومنها كتاب أقليدس[٣] وهو باللغة الفارسية أيضاً صنفهُ باسم البرواناه وزير الروم

(١) ملخصة عن رسالة استنسخها شكري افندي العسلي من رسالة كتبت بخط سليم افندي البخاري من علماء دمشق (٢) الكناشة أوراق تجعل كالدفتر تقيد فيها الفوائد والشوارد

(٣) من كتب المترجم به ما ذكره الشيخ طاهر الجزائري في كناشه ايضاً مشكلات التفاسير توجد نسخة منه في مكتبة يكي جامع بالاستانة والانتصاف شرح الكشاف في مكتبة راغب باشا وتفسير القطب في مكتبة أسعد افندي وشرح مختصر ابن حاجب في مكتبة الكوبرلي وشرح حكمة الاشراق في مكتبة اللالهلي وشرح النجاة في مكتبة الراغب والتحفة الشاهانية في الفلك ونهاية الادراك في علم الافلاك في مكتبة يكي جامع وفي المكتبة الخديوية شرح للقوشجي على التحفة الشاهانية وشرح القسم الثالث من مفتاح العلوم في المعاني والبيان وله كتاب في الهيئة ويقال ان من مؤلفاته حل مشكلات المجسطي وله كتاب حكمة الاشراق طبع بالهند ومن مؤلفاته « فتح المنان تفسير القرآن » في نحو ثلاثين مجلداً يوجد في مكاتب الاستانة وله كتاب تاج العلوم محفوظ في خزائن كتب الاستانة وغيرها من المصنفات التي ذكر اكثرها صاحب كشف الظنون

ومن جليل مصنفاته شرح كليات القانون في الطب لابن سينا وهذا الشرح لم تسمح قريحة بمثله لأنهُ يشتمل على خلاصة الشروح المصنفة لهذا الكتاب وهي عشرة شروح اجتمعت عنده مع تنقيحات لطيفة وزيادات غريبة من نتائج خاطره الغزيرة من كتب عزيزة الوجود قد لا يوجد مثلها الا في خزائن الملوك وسماه التحفة السعدية يعني باسم الوزير سعد الدين محمد الساوجي وزير الملك غازان و بعده أخيه (كذا) خر بنده واتفق ان هذا الكتاب تم شرحهُ وسيره الى الوزير المذكور وفي اثناء هذه الحال توفي الشيخ قطب الدين ووقع الترسيم والتوكيل على الوزير المذكور وطولب بالاموال وذلك في أذر بيجان سنة عشر وسبعمائة وقصد خر بنده العراق والوزير صحبته لتحصيل المطلوب منهُ الى ان قتله ليلة السبت حادي عشر شوال سنة احدى عشرة بمحول قريب بغداد ومع ما كان فيهِ هذا الوزير من المضايقة رسم لقطب الدين جائزة هذا الشرح مبلغ ستة آلاف دينار رائج عنها من الدراهم ستة وثلاثون الف درهم وراجعوا الوزير سعد الدين في ذلك وعرفوه بوفاة الشيخ قطب الدين فقال الوزير انا لا أعود في نهبتي وخصوصاً لمثله وفي مثل كتابهِ فأحضر جميع المال المذكور وجمع له أرباب الديون فقضى عنهُ ما كان عليهِ من الديون القديمة والحديثة التي كانت قد اجتمعت عليه مدة المرض وكان قد بقي مريضاً احد وخمسين يوماً وكان معظم نفقتهِ في هذه العلة الصدقة على الفقراء وعلى طلبة العلم و بقيت من المال بقية وزعت على أولاده وخاصته وكان هذا الوزير قد أنعم بهذه الجائزة وهو يومئذ تحت التوكيل وهو مطالب بألف كومار من المال منها عشرة آلاف دينار روائج فانظر الى علو همة هذا الرجل وسعة نفسه وصدق اعتقاده . . .

وكان له مع المشايخ الصالحين والصوفية المحققين اتصال حقيقي ونفس روحاني يرتاح اليهم في أوقات خلواتهِ وصفاء مشرو باتهِ قال : وقد لازمت ذراه المحروس ثماني عشرة سنة فشاهدت معظم سيرته تشتمل على الاخلاق الشريفة والفضائل الكاملة مع السخاء المفرط . كان لا يبقي على شيء مما يحصل بيده لا في سفر ولا في حضر وكان أكثر

عطائه للفقراء وطلبة العلم وذوي البيوت القديمة وذوي الحاجات قال ولقد حضر عنده في بعض الأيام مائتا دينار فبلغهُ ان صفيّ الدين عبد المؤمن بن فاخر صاحب الموسيقاه قد قدم من بغداد لضرورة ديون عليهِ قد غلبتهُ فقال هذا من بيت له خدمة قديمة للخليفة العباسي فبعث اليهِ بالمبلغ المذكور واعتذر اليهِ انهُ لم يكن عنده في هذا الوقت غير هذا المقدار . قال : وكان يقول في مرض موتهِ ليست فائدة المهلة في حياتي الا لاعطي الفقراء شيئاً فكان مصمماً على العطاء والاحسان وفعل الخير الى ان صار الى أحسن مصير. قال وكان في أسفاره يصحبهُ من التلاميذ جماعات وخصوصاً في أيام توجيهِ الى خراسان والروم فلقد اجتمع معهُ في سفره الى الروم نحو الاربعين طالباً وغالبهم أرباب فضائل وعلوم راسخة وكان يخدمهم بالمال والنفس والعلم وكانوا مع هذا يتخصونهُ وما يفعله معهم من الخدمة والخير ويقولون هذا الرجل متطفل علينا لأن الناس انما يخدمونهُ ويعطونهُ الأموال لأجلنا ونحن الذين نشيد كلمتهُ ونظهر فضيلتهُ ونجمله بين الناس . قال وكان يبلغهُ هذا وامثاله عنهم فلا يغضب ولا يلتفت الى قول القائل اليهِ ذلك ويقول: انا أريض اخلاقي بالصفح عن زلات اخواني اليّ

وقال الاربلي: واخبرني الشيخ ضياء الدين الطوسي قال : اجتمعت بقطب الدين الشيرازي بقزوين وهو يقرأ الفقه على الشيخ علاء الدين الطاووسي صاحب التعليقة قال فسألته عن بعض احواله فحكى لي اشتغاله بالطب وانه ترك معالجة الناس وخرج من شيراز وقصد بلاد خراسان وانه توفر مدة سنين على تحصيل علم المعقولات من علم الكلام قال وقال لي ما وجدت نفسي في عمري متوفراً على طلب العلم لم اشتغل بسوى (كذا) هاتين السنتين هما كانتا خير تحصيل حصلت فيهما من العلوم النظرية ما احياني لكني غير عالم بالفقه فقصدت الشيخ علاء الدين الطاووسي لا قرأ عليه الفقه فقرأت عليه الحاوي الصغير وكتاب الوجيز وكانت للشيخ علاء الدين نسخة من الوجيز محشاة بالفوائد اللطيفة من الفقه فسرقها وهرب من قزوين قال: وهكذا كانت عادته اذا اعجبه

كتاب يتحيل حتى يسرقه وكان مشتهراً بين طلبة العلم في مبادئ احواله بهذا الوصف قال وطلب علاء الدين نسخته فلم يجدها فقالوا لم يكن عندك غير محمود الشيرازي فقال ليس هو آخذها وقال لي مهذب الدين الشيرازي احد تلاميذ قطب الدين ان قطب الدين كان يلقي الدروس من هذه النسخة بمدينة سيواس ويقول هذه النسخة سرقتها من شيخي علاء الدين الطاووسي بقزوين في مبدأ تحصيل العلم وكنت عاجزاً عن مشترى الكتب

ولما عمر ملك خوارزم تلك مارستاناً انفذ الشيخ قطب الدين اليه رسم هذا المارستان كتباً طبية قيمتها بالتقريب اربعة آلاف درهم فاجازه بجائزة تشتمل على رقيق قماش وقد قيمة الجميع ستة وثلاثون الف درهم . وصنف كتاباً باسم الملك عز الدين ملك شيراز في علم الاخلاق والحكمة فاجازه ببغلة سنية وآلاتها ومعها ثلثمائة مثقال ذهباً وتخت قماش ذكر هذا وما قبله الاربلي قال: وكنت بماردين فسير لصاحبها الملك المظفر هدية تشتمل على مملوك صغير تركي وآخر رومي وتخت قماش منوع من الحرير وسجادة وكتاب صغير من تصانيفه فرد الملك المظفر الجميع وقبل السجادة والكتاب واجازه عليهما باثني عشر الف درهم وقال : هذا القدر هو الذي ينبغي ان يقبل من العلماء اما كتاب من فوائدهم واما خرقة من بركاتهم . ولم يحمل (؟) الا في دولة غازان فانهُ كان بينه وبين رشيد الدولة كراهية في النفوس بين الشخصين لأن قطب الدين كان يتنقص كثيراً برشيد الدولة وبتصانيفه ويستجهله ويحط عليه

وقد صنف تصانيف في تفسير الكتاب العزيز وفي غيره وكان قطب الدين يظهر نقصها ويكشف عن عورتها قلت :ولقد حدثني بعض شيوخنا عن قطب الدين انه لما بلغه ان الرشيد قد شرح القرآن العظيم قال لاصحابه ايه هاتوا التوراة حتى اشرحها قال الاربلي وتمكن رشيد الدولة من دولة غازان فاشاع انه يريد ان يقتل قطب الدين ثم ظهر انه قتله بقطع رزقه الذي كان مقرراً على الدولة ومبلغهُ ثلاثون الف درهم فقال

لغازان هذا رجل فقيه « ايش » يعمل بهذا المال كله هذا تضييع هذا يكفيه اثنا عشر الف درهم وكان غازان بخيلا فاصغى الى قول رشيد الدولة وقطع سائر ما كان لقطب الدين من المبلغ المذكور وبعد مدة طويلة سعى فيه حتى اطلق له في كل سنة اثناعشر الف درهم قال : وكان قطب الدين قد بيت مع رشيد الدولة وعجز عن تلافي ما افسد وعجز عن رضاه قال لكن كان قطب الدين سعيداً في عقله وعمره وتصانينه واصحابه فما اثر ذلك عنده شيئاً لكنه كان خائفاً لأن يسعى رشيد الدولة في قتله فآمنه الله تعالى منه قال الاربلي واخبرني التاجر الشفار قال ولما تطاولت علة الشيخ قطب الدين الشيرازي واحس بالموت طلب اليه الصدر زين الدين علي بن فخر الدين بن عبد السلام الطبي وقال له ياخواجه زين الدين اريد من انعامك ان تتولى امر تجهيزي ودفني فاني مارأيت ان اضع هذه المكرمة الاعندك لاني شاهدت رغبتك في فعل الخيرات والمبرات فاجاب زين الدين بالسمع والطاعة قال ولما توفي قطب الدين انفق زين الدين على جنازته وتجهيزه ودفنه وايام العزاء سبعة آلاف درهم ومائتي درهم ومن ذلك انه اشترى سبعة آلاف ذراع قماش قطن ابيض وفصلها قمصاناً وعمائم للأيتام والارامل والبسها سبعمائة انسان من الفقراء والتلاميذ اللائذين بقطب الدين وطائفة من الايتام والارامل فكانوا بين يدي الجنازة يبكون ويندبون وجلس مدة ايام العزاء للناس والتزم اطعامهم ومهامهم وما هو من كلف العزاء لمثل هذا الميت . قال الصدر شمس الدين : وما رأيت احداً من الرؤساء اطول من نفس قطب الدين الشيرازي في الشفاعات لذوي الحاجات وذوي السلطان كان اذا جلس الى امير او وزير او قاض يخرج اوراقاً من جيبه نحو عشرين أو ثلاثين قطعة ويشفع في الجميع وكان غالبها يقضى وما يرد الا القليل وكان كثيراً ما يشاهد من الأمرآء والأكابر مللاً من كثرة شفاعاته فلا يلتفت الى ذلك الملل ولا يترك تردده اليهم ويقول ولأي شيء خُلقوا وخُلقنا وما نفعنا بالجاه اذا لم نقض حاجات الناس اذا تركنا هؤلاء وسجاياهم لا يقضون حاجة المسكين أو عاجز

محروم فنحن نسوقهم الى فعل الخير قهراً وتحيلاً عليهم حتى يؤجروا ونؤجر نحن معهم ونقضي حوائج الناس الملهوفين العاجزين كان هذا دأبهُ يفعل غالب أوقاتهِ الخير بجاههِ وماله وعلمهِ رحمهُ الله

تسامح العظماء

يظن من لا عهد له بدرس مشاهير رجال الاسلام انهم كانوا جبابرة لا يحسنون غير البطش والكر والفرّ على ان الباحث في سيرهم يراهم من أشد الأمم حرصاً على على مافيهِ قوام عمرانهم ولم يكن في قلوبهم غالباً شيء مما يقال له تعصب أو تحزب بل ساسوا رعاياهم سياسة العدل لم يحابوا ولم يداجوا فقدروا الكفاءآت قدرها ولم يعتبروا في مصالحهم الا أهل الغناء والعلم . وربما لا يصدق الاغمار في هذه الاعصار لو قلنا لهم[1] ان معاوية بن أبي سفيان اصطفى لنفسهِ ابن أثال النصراني من أطباء دمشق وأحسن اليهِ وكان كثير الافتقاد له والاعتقاد فيهِ . وصحب تياذوق الطبيب الحجاج بن يوسف الثقفي المتولي من جهة عبد الملك بن مروان وخدمهُ بصناعة الطب وكان يعتمد عليهِ ويثق بمداواتهِ وكان له منهُ الجامكية الوافرة والافتقاد الكثير

وخدم جورجس بن جبرائيل الخليفة المنصور وكان عظيماً عنده رفيع المنزلة ونال من جهتهِ أموالاً جزيلة والمنصور هو الذي يقال له الدوانيقي لبخله . وخدم بختيشوع بن جورجس هرون الرشيد وتميز في أيامهِ وكان رئيس الاطباء كلهم في بغداد . وكان جبرائيل بن بختيشوع بن جورجس حظياً عند الخلفاء رفيع المنزلة عندهم كثيري الاحسان اليهِ وحصل من جهتهم من الاموال مالم يحصله غيره من الاطباء وكان مكيناً عند جعفر بن يحيى بن

(١) اتخذت طبقات الاطباء مرجعاً في كتابة هذه الرسالة والغالب اني أنقل المقصود من عبارة المؤلف بالحرف الواحد